مطبوعات المجمع العلمي العراقي

الجامع الكبير

في

صناعة المنظوم من الكلام والمنثور

تأليف

ضياء الدين بن الأثير الجزري

قام بتحقيقه والتعليق عليه

الدكتور مصطفى جواد و الدكتور جميل سعيد

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٩٥٦م — ١٣٧٥ هـ

تصــــدير

عصر نصر الله بن الأثير

كلُّ أديب هو نتيجة لثقافته وموهبته وبيئته وعصره ، ولاختلاف هذه المؤثرات الاربعة تختلف درجات الأدب وتختلف أحياناً ضروبه وأنواعه ، وعصر نصر الله بن الأثير هو النصف الثاني من القرن السادس من الهجرة ، والنصف الأول من القرن السابع ، وهذا العصر يتميز بالتفاني الحربيّ بين الدول الاسلامية والامارات الافرنجية بالشـــام المعروفة بمستعمرات الصليبيين ، وبانتعاش الدولة العربية العباسية واستمادتها استقلالها منذ عهد الخليفة المقتفي لأمر الله سنة « ٥٤٧ » ونهوض دولة الأدب فى حكم العرب ، فالحروب الصليبية منذ نشوبها أخذت تلهب العواطف ، وتفيض القرائح ، وتحرق القلوب ، وتهيج النفوس ، فأخذ النثر منها سبيلاً سياسياً حماسياً رائعاً ، وأخذ الشعر منها طريقةً حماسية لاذعة ، وكثرت المراسلات المستنفرة والأناشيد الحافزة وأقبل الناس على القصيد يلبون داعيه ، وحفدوا الى المستغيث بالنصر المؤزَّر .

وانهاض الدولة العربية من كبوتها أقام للأدب سوقاً دارّة ، واستفاض القرائح ، وبعث جماعات كثيرة من الأدباء على خدمة دولة العرب ، بعد أن كانوا لايصدقون بانتعاشـــها ، ويستعجزون القدر فى انتياشها ، وألف جماعة من الأدباء كتباً فى البلاغة والبيان .

وذكر نصر الله بن الأثير نفسه من المؤلفين فى البلاغة ممن سبق عصرهم عصره « ابن أفلح البغدادي قال : « ووقفت على كتاب يقال له « مقدمة ابن أفلح[1] البغدادي » وقد قصرها على

(١) هو جمال الملك أبو القاسم علي بن أفلح الحلي البغدادي الكاتب الشاعر المتوفى سنة « ٥٣٥ » في أشهر الأقوال ، كان ذا فضل وأدب وله شعر مليح ونثر جيد بليغ إلا أنه كان كثير الهجاء ، لقبه المسترشد جمال الملك ثم نقم عليه لمخامرته دبيس بن صدقة المزيدي عليه ، ترجمه ابن الجوزي وذكره في المنتظم « ٩ : ٢٤٣ » و « ١٠ : ٨٠ » والعماد الأصفهاني في خريدة القصر « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٣٣٢٦ =

تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة ، وللعراقيين بها عناية وهم واصفون لها ومكبون عليها ولما تأملتها وجدتها قشوراً لالب تحتهـا لأن غاية ما عند الرجل أن يقـول : وأما الفصاحة فانهـا كقول النابغة مثلاً أو كقول الأعشى أوغيرهما . ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتاً ، وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة حتى إذا وردت فى كلام عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه وكذلك يقول فى غير الفصاحة ... »

وذكر منهم الكافى محمد بن الحسن بن حمدون البغدادي مؤلف التذكرة كما فى « ص ١٥٦ ، ٢٢٢ » من المثل السائر قال : « ورأيت ابن حمدون البغدادي صاحب التذكرة قد أورد هذين البيتين فى كتابه ... » ثم قال : « ووجدت فى كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادي وكان مشاراً اليه عندهم بفضيلة ومعرفة لاسيما فن الـكتابـة فوجدت فى كتابه ذلك باباً مقصوراً على ذكر الـكناية والتعريض ... » . فمقدمة ابن أفلح وكتاب التذكرة العظيم من كتب البلاغة والأدب إذ ذاك ، وقد ألف فيها بعد ذلك أبو المعالي الحظيري المتوفى سنة « ٥٦٨ » هـ .

وبعد هذه الحقبة ظهرت براعـة نصر الله بن الأثير فى الترسّل والتأليف فى البيان فألّـف كتاب « الجامع الـكبير فى صناعة المنظوم والمنثور » الذي فوّق ما تقدمه فى الزمان من التآليف الخاصة بهذا الفن ثم ألّـف على غراره « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » وسارت بفضله الركبان ، وعكف على درسه طلاب الأدب فى مختلف البلدان ، ولما وصل الى بغداد تصدّى له عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد ، المدائني فألّـف نقداً له ، ولـكنه لم يستطع الحط من قيمته قط فقد سار كالمثل السائر ، والبدر الباهر فى فلك البلاغة والبيان . وسنشير إلى ذلك أيضاً فى أثناء الـكلام على سيرة نصر الله الأدبية .

= الورقة ٢٤ » . وابن النجار « المستفاد في الورقة ٥٣ من نسخة دار الـكتب المصرية » وابن خلكان « ١ : ٢٤٩ ، ٣٩٦ ، ٤٥٨ » من طبعة بلاد العجم ، وله ترجمة وذكر في الكامل في حوادث سنة ٥١٧ وسنة ٥٣٥ ومرآة الزمان « ٨ : ١٦٩ ، ٢٩٧ » وصيد الخاطر لأبي الفرج بن الجوزي « ص ٣٠٨ » وعيون الأنباء في طبقات الأطبـاء « ١ : ٢٧٤ ــ ٥ » ومختصر الدول « ص ٣٦٥ » وتجارب السلف « ص ٢٩٧ » والنجوم الزاهرة « ٥ : ٢٦٤ » ونصرة الفترة للعماد الـكاتب « نسـخة دار الـكتب بباريس ٢١٤٥ الورقة ٩٧ ، ١١١ » والقسم الأول من الجزء الأول من خريدة العراق « ص ١٤٢ » .

ترجمة مؤلف الكتاب

هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير .

والجزريّ نسبة الى « جزيرة ابن عمر » قال ياقوت الحموي : « جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام ولها رستاق (1) مخصب واسع الخيرات ، وأحسبُ أنّ أوّل من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي وكانت له إمرة بالجزيرة وذكرُ قرابة سنة (٢٥٠)(2) . وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ، ونصبت عليه رحى ، فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق . وينسب اليها جماعة كثيرة منهم .. وبنو الأثير العلماء الأدباء وهم مجد الدين المبارك (3) وضياء الدين نصر الله وعز الدين أبو الحسن علي بنو محمد بن عبد الكريم الجزريّ ، كل منهم إمام . مات مجد الدين والآخران حيان سنة ٦٢٦ » .

وقال ابن خلكان : « والجزيرة المذكورة أكثر الناس يقولون : جزيرة ابن عمر . ولا أدري من ابن عمر ؟ وقيل إنها منسوبة الى يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقين ، وسيأتي ذكره إن شاء الله – تعالى – ورأيت في بعض التواريخ أنهما جزيرة ابني عمر أوس وكامل ، ولا أدري أيضاً من هما ؟ ثم رأيت تأريخ ابن المستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد ...

(1) الرستاق والرزداق : القرى وما يحيط بها من الأرضين .

(2) في الطبعة الأوروبية والطبعة المصرية بعدها من معجم البلدان « وكانت له امرأة بالجزيرة وذكر قرابة سنة ٢٥٠ » وهو تصحيف شنيع لما قومناه .

(3) ترجمه ياقوت في معجم الأدباء « ج ٦ ص ٢٣٨ – ٢٤١ » طبعة مرغليوث ، ولم يترجم أخاه علياً لأنه لم يعده من الأدباء ، ولا نشك في أنه ترجم أخاهما نصر الله وضاعت ترجمته من الجزء السابع .

أنها جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس التغلبي والله أعلم » ، ثم إني ظفرت بالصواب في ذلك ، وهو أنّ رجلاً من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبـــد العزيز بن عمر ، فأضيفت اليه[1] والجزيرة اليوم من بلاد تركية .

وقال جمال الدين أبو حامد محمد بن علي بن الصابوني في كتابه « تكملة إكمال الكمال » في مشتبه النسب : « وذكر في باب الأثير : بفتح الهمزة وكسر الثاء المثلثة وبعدها ياء معجمة باثنتين من تحتها وآخره راء مهملة جماعة ، منهم الأخوان الفاضلان أبو السعادات المبارك وأبو الحسن علي ابنا محمد بن عبـــد الكريم الجزري وأغفل ذكر أخيهما الوزير الفاضل أبي الفتح نصر الله[2] ... »

وقال زكي الدين عبد العظيم المنذري : « الأثير : بفتح الهمزة وكسر الثاء المثلثة وسكون الياء آخر الحروف وبعدها راء مهملة[3] » .

قال ياقوت الحموي : « والأثير هو أبوه محمد بن عبد الكريم[4] » .

والأثير في اللغة : الخليص والمكرم ، وقد جاء في الأخبار أنّ روح بن زنباع الجذامي كان يقري الأضياف وكان مسامراً لعبد الملك بن مروان أثيراً عنده[5] . ومؤنثه « الأثيرة » قال أبو الفرج الاصفهاني في أخبار « فريدة » صاحبة الواثق بالله « وكانت فريدة أثيرة عند الواثق وحظية لديه جداً[6] » .

وإذ كان كل من الإخوة الثلاثة ابناً للأثير لزم أن يكون « الأثير » لقب أبيهم « محمد بن

(١) وفيات الأعيان في « ترجمة » علي بن محمد بن الأثير « ج ١ ص ٣٧٩ » من طبعة بلاد العجم .
(٢) نسخة المجمع العلمي العراقي المصورة في « الأثير » .
(٣) « التكملة لوفيات النقلة » نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية « تحت الأرقام ١٩٨٢ د ج ٢ ص ١٣٢ » .
(٤) معجم الأدباء « ج ٦ ص ٢٣٨ » من الطبعة المذكورة .
(٥) الكامل للمبرد « ج ٣ ص ٩٤ » طبعة الدلجموني الأزهري وقد صحفت الجملة في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٥١ الى « كان مسايراً ... أميراً » .
(٦) الأغاني « ج ٤ ص ١١٤ » طبعة دار الكتب المصرية .

محمد » وقد قاله ياقوت ، فممن كان أثيراً ؟ يظهر لنا أنه كان أثيراً عند الوزير جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الاصفهاني الملقب بالجواد وزير عماد الدين زنكي بن آقسنقر ملك الموصل في آخر عهده ، ووزير ابنيه سيف الدين غازي الأول ابن زنكي وقطب الدين مودود ابن زنكي ، وقد توفي الجواد سنة ٥٥٩ (١) . استدللنا على ذلك بما ذكره ابن الأثير عز الدين في سيرة الجواد قال : « حكى لي والدي عنه قال : كثيراً ما كنت أرى جمال الدين إذا قدم اليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه في خبز بين يديه فكنت أنا ومن يراه نظن أنه يحمله الى أم ولده مني فاتفق أنه في بعض السنين جاء الى الجزيرة مع قطب الدين وكنت أتولى ديوانها وحمل جاريته أم ولده الى داري لتدخل الحمام فبقيت في الدار أياماً فبينما أنا عنده في الخيام وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعل ثم تفرق الناس ، فقمت فقال : اقعد . فقعدت فلما خلا المكان قال لي : قد آثرتك اليوم على نفسي فاني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله ، خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في هذا المنديل ، واترك الحماقة من رأسك ، وعد الى بيتك فاذا رأيت في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام . قال : ففعلت ذلك ، وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك ، وبقيت في غلماني ، فرأيت في موضع إنساناً أعمى وعنده أولاده وزوجته وهم من الفقر في حال شديد ، فنزلت عن دابتي اليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم اياه وقلت للرجل : تجيء غداً بكرة الى دار فلان — أعني داري ولم أعرفه نفسي — فاني آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئاً . ثم ركبت اليه العصر فلما رآني قال : ما الذي فعلت في الذي قلت لك ؟ فأخذت أذكر شيئاً يتعلق بدولتهم . فقال : ليس عن هذا أسألك ، إنما أسألك عن الطعام الذي سلمته اليك . فذكرت له الحال . ففرح ثم قال : بقي أنك لو قلت للرجل يجيء اليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجري لهم كل شهر دنانير . قال : فقلت له قد قلت للرجل حتى يجيء إليّ . فازداد فرحاً . وفعلت بالرجل ما قال ، ولم يزل يصل اليه رسمه حتى قبض (٢) .

(١) الوفيات « ج ٢ ص ١٨٦ » من الطبعة المذكورة . والكامل في حوادث سنة « ٥٥٩ » ه .
(٢) الكامل في حوادث سنة « ٥٥٩ » .

وهذه الحكاية تدل على أن الرجل كان أثيراً جداً عند جمال الدين الوزير الجواد وأنه تولى له ديوان جزيرة ابن عمر ، ويؤكد هذه الولاية ما قاله ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٥٦٥ قال :

« حدثني والدي — رحمه الله — قال : كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم فلما كان قبل [(١)] موته بيسير أتانا كتاب من الديوان بالوصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة ، وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة بينهما دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يمسح فيؤخذ منه على كل جريب شيء معلوم وبعضها مطلق عن الجميع . قال : وكان لي فيها ملك كثير فكنت أقول : إن المصلحة أن لا يغير على الناس شيء وما أقول هذا لأجل ملكي فاني أمسح ملكي ، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة . فجاءني كتاب النائب يقول : لا بد من المساحة . فاظهرت الأمر وكان بالعقيمة قوم صالحون لي بهم أنس وبيننا مودة ، فجاءني الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فأعلمتهم أني راجعت وما أجبت الى ذلك . فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما وطلبا مني المعاودة والمخاطبة ثانية . ففعلت . فأصروا على المساحة ، فعرفتهما الحال . فما مضى إلا عدة أيام وإذ قد جاءني الرجلان فلما رأيتهما ظننت أنهما جاءا يطلبان المعاودة ، فعجبت منهما وأخذت أعتذر اليهما ، فقالا : ما جئنا إليك في هذا وانما جئنا نعرفك أنّ حاجتنا قضيت . فظننت أنهما قد أرسلا الى الموصل من يشفع لهما . فقلت : من الذي خاطب في هذا بالموصل ؟ فقالا : إن حاجتنا قد قضيت من السماء والمكافأة أهل العقيمة . فظننت أنّ هذا مما قد حدثا به نفوسهما ، ثم قاما عني . فلم يمض عشرة أيام وإذا قد جانا كتاب من الموصل يأمرون باطلاق المساجين والمحبوسين والمكوس ويأمرون بالصدقة ويقال : إن السلطان — يعني قطب الدين — مريض في حالة شديدة ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته ، فعجبت من قولهما واعتقدته كرامة لهما .

قال ابن الأثير : فصار والدي بعد ذلك يكثر إكرامهما واحترامهما ويزورهما [(٢)] .

وبهذه القصة نعلم أن الأثير والد بني الأثير كان حسن السيرة غنياً وأنه بقي الى ما بعد

(١) توفي سنة « ٥٦٥ » . (٢) الكامل في حوادث سنة « ٥٦٥ » هـ .

سنة ٥٦٥ وهي سنة وفاة قطب الدين مودود بن زنكي ؛ ولم يذكر ابن الأثير المؤرخ وفاة والده ، ولكنه ذكر وفاة أخيه مجد الدين المبارك في حوادث سنة « ٦٠٦ » ه قال : « وفيها في سلخ ذي الحجة توفي أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب . مولده في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين [وخمسمائة] وكان عالماً في عدة علوم منها الفقه والأصولان والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة في التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتباً مفلقاً يضرب به المثل ، ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم — رحمه الله ورضي عنه — فلقد كان من محاسن الزمان . ولعل من يقف على ما ذكرته يتهمني في قولي ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أني مقصّر (١) » .

ويفهم من خبر أورده ياقوت الحموي أن « الأثير » كان حياً في بعض عهد نور الدين أرسلان شاه الأول ابن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر « ٥٨٩—٦٠٧ » (٢) . ويثبت ذلك إن لم يكن في الخبر تصحيف .

وكانت ولادة ابنه نصر الله مؤلف هذا الكتاب في العشرين من شعبان سنة « ٥٥٨ » (٣) بالجزيرة وبها نشأ ثم انتقل إلى الموصل مع والده في رجب سنة « ٥٧٩ » ودرس بها الأدب والنحو واللغة وعلم البيان ، وحفظ القرآن وكثيراً من الأحاديث النبوية ، واشتغل بالعلوم ، وتزوج قبل سنة « ٥٨٥ » ، وقد عرفنا في التاريخ له من الولد شرف الدين أبا عبد الله محمد بن نصر الله ، وكانت ولادته في شهر رمضان سنة « ٥٨٥ » ووفاته في سنة « ٦٢٢ » قبل وفاة أبيه . والظاهر أنه درس على أبيه وأتقن علم الأدب . وألف كتباً منها « غرة الصباح في أوصاف الأصطباح » وكتاب « الأنوار في نعت الفواكه والثمار » (٤) وكتاب « روضة النديم » قال الصفدي :

(١) الكامل في حوادث سنة « ٦٠٦ » ه . (٢) معجم الأدباء « ٦ : ٢٣٩ » .

(٣) يفهم من الكامل أن أخاه علياً كان بجزيرة ابن عمر سنة « ٥٧١ » ثم كان بالموصل سنة « ٥٧٦ » فهل كان قدومه إياها لحاجة ؟

(٤) قال الصلاح الصفدي : هو عندي بخطه .

« له اليد الطولى في الترسل والشعر ومن نظمه يصف الحمر... » [1] وقال ابن خلكان : رأيت له مجموعاً جمعه الملك الأشرف أحسن فيه وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه [2].

والظاهر لنا أنَّ نصر الله بن الأثير درس علوم الأدب على أساتذة أخويه ثم عليهما ولا سيما المبارك الكاتب الأديب المحدث الاصولي ، ولما كملت له آلات الكتابة وأدوات الخدمة قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب في شهر ربيع الأول سنة « ٥٨٧ » وتوسل الى ذلك بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، فوصله الفاضل بخدمة الملك في جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وهوشهر تكثر فيه الحوادث الجسام ، وقلما يخلو أمر ابتدئ به فيه من سُوء خاتمة . وجعل صلاح الدين له معلوماً أي جراية مالية ، فأقام عنده الى شوال من السنة فطلبه منه ابنه نور الدين علي الملقب بالملك الأفضل ، فخيّره صلاح الدين بين الاقامة في خدمته والانتقال الى ابنه المذكور ، وتكون الجراية المالية التي قررها له باقية على صلاح الدين ، فاختار نصر الله نور الدين ومضى إليه فاستوزره وحسنت حاله عنده .

ولما توفي صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩ واستقل ابنه الملك الأفضل نور الدين بمملكة دمشق استقل نصر الله بن الأثير بالوزارة وردّت الأمور اليه ، وصار الاعتماد عليه في الأحوال[3] ، وكان نصر الله جاهلاً بالسياسة ، قليل الحظ من الكياسة ، فحسّن الملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه عنه وأكابر أصحابه ، وأن يستخدم أمراء غيرهم ، ففارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جهاركس وفارس الدين ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير وسيف الدين سنقر المشطوب وكانوا عظماء الدولة وأهل القول المسموع فيها ، وصاروا الى أخيه الملك العزيزعثمان ابن صلاح الدين بالقاهرة وهو ملك مصر فأحسن لقاءهم وأكرمهم وجاد عليهم بمئات دنانير ، وولى فخر الدين أستاذية داره وفوّض إليه أموره وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيدا

(١) تاريخ الصفدي على السنين نسخة مكتبة الأوقاف بحلب برقم ١٢١٦ » ،
(٢) الوفيات « ج ٢ ص ٢٩٠ » من طبعة بلاد العجم .
(٣) الوفيات « ٢ : ٢٨٨ » من الطبعة المذكورة والسلوك لمعرفة دول الملوك « ١ : ١١٥ » .

وأعمالها وكان ذلك لها وزادها نابلس وأعمالها ، ولم يقابل ضياء الدين بن الأثير إحسان القاضي الفاضل بالاحسان ، فان الفاضل ترك دمشـــق أيضاً وعاف مملكة نور الدين الأفضل ولحق بالقاهرة فخرج الملك العزيز الى لقائه وأجلّ قدومه إجلالاً ، وأكرمه إكراماً .

وكانت مدينة القدس مضافة للملك الأفضل ، فحمله ضياء الدين بن الأثير على أن يتخلى عنها لأخيه العزيز ملك مصر ، تنصُّلاً من النهوض بأعباء ولايتها ، لأنها كانت تحتاج حينئذ الى أموال ورجال لمدافعة الفرنج عنها ، فكتب الأفضل الى أخيه العزيز بذلك أخذاً برأي الضياء ابن الأثير ، فسُر العزيز بذلك وجهـّز عشرة آلاف دينار الى عز الدين جرديك النوري متولي القدس لينفقها في عسكر القدس ، فخطب جرديك بها للملك العزيز وقطع اسم الملك الأفضل . وخشي العزيز من أن ينقض الفرنج الهدنة التي عقدها معهم أبوه صلاح الدين ، فأرسل جنداً الى القدس احترازاً من الفرنج ، ثم بدا للأفضل أن يسترد ما وهب لأخيه وهـو القدس ، ورجع عن ذلك التخلّي ، فتغير العزيز من هذا ، وأخذ الأمراء في التحريش والتضريب بينهما وحسَّنوا للعزيز الاستبداد بالملك ، والقيام مقام أبيه ودفع أخيه الاكبر وهوالملك الأفضل عن الملك ، فبلغ ذلك أخاه فساءه .

وكانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان صلاح الدين ثلثها على مصالح القدس وباقيها على ابن الأمير علي بن أحمد المشطوب فشاركه فيه أحد الأمراء الأكراد فمدوا أيديهم الى الوقف وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم فلجؤوا الى الملك الأفضل ، فأفضل عليهم وسكن اليهم ، فتأثر الملك العزيز بذلك ، وكان من جملة الأسباب الداعية الى الاضطراب أنّ الفرنج تسلموا ثغر جبيل من مستحفظيه بيعاً ، وضعف الملك الأفضـل عن استخلاصه ، فقيل للعزيز : إن توانيت استولت الفرنج على البـلاد فخرج العزيز بعسكره من الصلاحية والأسـدية والأكراد ، وبلغ خبره أخاه الأفضل فضـاق صدره واجتمع مع من في خدمتـه من الأمراء بموضع يعرف برأس الماء وأراد أن يستعطف أميراً اسمه صارم الدين قايماز النجمي أحد أبنـاء الأمراء عند صلاح الدين وكان مقيماً في إقطاعه وكان بينه وبين الأفضل شقاق وعناد ، فارسل

اليه الأفضل في ذلك فلم يجب واستوحش من الأفضل وخرج من إقطاعه ورحل الى عسكر العزيز وأظهر العزيز أنه يُريد قتال الفرنج وفي الباطن كان يريد الاستيلاء على دمشق وانتزاعها من أخيه . ورأى الأفضل أن يكتب الى أخيه بكل ما يحب من إعلاء كلمته والاجماع عليه ، ويكون هو من القائمين بين يديه ، طلباً منه لتسكين الفتن ورغبة في ذهاب الإحن ، فأشير عليه بغير الصواب قال المقريزي : « منعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه وحسنوا له محاربة أخيه فمال اليهم » . وقيل له : أنت الكبير ، واليك التدبير ، فجُدّ وأجتهدْ ولا يعلم أصحابك بهذا الخور الذي داخلك ، والجبن الذي نازلك ، ونحن بين يديك ، وكلنا عاقدون الخناصر عليك . فبعث الأفضل يستنجد عمه العادل بالبلاد الجزرية وأخاه الظاهر بحلب والملك المنصور بحماة والأمجد صاحب بعلبك والمجاهد شيركوه بحمص .

ووصل في جمادى الآخرة من سنة (٥٩٠) هـ رسول الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الى الملك الأفضل ، ووصلت كتب جماعة من الملوك الأكابر بالانجاد المتظاهر للأفضل . وسير الأفضل الى عمه العادل وهو بحرّان والرها من الجزيرة رسلاً يستنجده ، فلما أبطأ عليه سيّر اليه أميراً أسمه عز الدين عثمان الزنجبيلي على نجيب ليسرع ويأتي به عن قريب ، وكانت كتب الملك العادل قد وصلت تحمل نبأ عزمه على نجدة الأفضل ونصرته .

ووصل العزيز في جيشه الى ظاهر دمشق وجاء العادل في عساكره نجدة للأفضل فنزل بمرج عذراء [1] من الغوطة وأرسل اليه العزيز يريد الاجتماع معه ، فاجتمعا على ظهور أفراسهما وتفاوضا فقال له العادل فيما قال :

« لا تخرب البيت – يعني البيت الأيوبي – ولا تدخل عليه الآفة ، والعدوّ وراءنا – يعني الافرنج – من كل جانب وقد أخذوا جبيلاً فارجع الى مصر واحفظ عهد أبيك ، وأيضاً فلا

(١) جاء في النجوم الزاهرة « ٦ : ١٢١ » طبعة دار الكتب « مرج عدواء » وقال المصححون المصريون في الحاشية « كذا في الأصل وفي ابن الأثير (بمرج الريحان) وقد بحثنا عن كليهما في الكتب التي تحت أيدينا فلم نوفق اليهما » . قلنا : عدواء هو تصحيف « عذراء » قال ياقوت في معجم البلدان . « عذراء ... وهي قرية بغوطة دمشق من اقليم خولان معروفة واليها ينسب مرج ... » .

تكسر حرمة دمشق وتطمع فيها كل أحد[(1)] » . وتحدث معه في الصلح وأن ينفس الخناق عن دمشق وكان قد اشتد الحصار وقطعت الأنهار ونهبت الثمار ، فوافق العزيز عمه العادل على فض النزاع وتراجع الى قرية داريا من قرى غوطة دمشق ونزل على الأعوج ، وأرسل الأمير فخر الدين جهاركس أستاذ الدار ، وهو يومئذ أجل الأمراء الصلاحية - الى العادل فقرروا الصلح على شروط ، وعاد الى العزيز فرحل العزيز ونزل مرج الصُّفَّر ، فحدث له مرض شديد وأرجف بموته منه وأيس منه ثم أفرق وأبل منها وأفاق ، وقيل إن العادل بعث اليه يقول : ارحل الى مرج الصُّفَّر . فرحل وهو مريض ، وكان قصد العادل أن يبعده عن دمشق . ووصل الملوك المقدم ذكرهم في جنودهم نجدة للأفضل ، فقال لهم العادل : قد تقرّر أن العزيز يرحل الى مصر ، قال ابن تغري بردي : واشتد مرض العزيز فاحتاج الى المصالحة ولولا المرض ما صالح . وأمر العزيز بعمل نسخة اليمين أي المعاهدة وهي جامعة لمقترحات جميع الملوك ، وحسم مواد الخلاف ، وأنّ الملك الأمجد بهرامشاه بن عز الدين فرخشاه الأيوبي صاحب بعلبك والملك المجاهد شيركوه الصغير صاحب حمص يكونان مؤازرين للملك الأفضل وتابعين له ، وأن الملك المنصور صاحب حماة يكون في حيّز الملك الظاهر غازي صاحب حلب ومؤازراً له ، وبعث كل من الملوك أميراً من أمرائه ليحضر الحلف والتحالف ، فاجتمعوا يوم السبت الثاني عشر من رجب من السنة « ٥٩٠ » المذكورة ، وجرت أمور آلت الى الحلف على دخن ، وطلب العزيز الى عمه أن يزوّجه إحدى بناته فزوّجه إياها ، وكتب العماد الأصفهاني كتاب العقد في ثوب أطلس ، وقرئ بين يدي الملك الظاهر وعُقد العقد عنده .

وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز واحداً واحداً ، وأول من خرج اليه أخوه الملك الظاهر غازي والتقيا في أول شعبان بمرج الصُّفَّر وبات عنده ليلة وعاد بعد أن أهدى كل الى أخيه هدية ، وخرج بعده عمه العادل في خواصه ثم أخوه الملك الأفضل ، فتلقاه واعتنقا وبكيا ، وكان قد فارقه منذ تسع سنين ثم إن الأفضل نظم أبياتاً في استعطاف أخيه واستمالته وبعث بها اليه ،

(1) قابل هذا الكلام الذي نقله ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة « ٦ : ١٢١ » بما اتهم به ابن الأثير الملك العادل من سعيه في فساد البيت الأيوبي .

ورحل العزيز من مرج الصفر في ثالث شعبان يُريد مصر ، فلما كان ثالث عشره عمل الأفضل لعمه وسائر الملوك دعوة عظيمة وودعهم ، ثم رحلوا من الغد الى بلادهم إلا العادل فانه أقام الى تاسع شهر رمضان ثم رحل إلى بلاده بالجزيرة .

وهمَّ الأفضل بمكاتبة العزيز بما يؤكد أسباب الصلح فأماله عن ذلك خواصه وأغروه بأخيه ورموا جماعته من أصحابه بأنهم يكاتبون العزيز ، فاستوحش منهم وفطنوا لذلك فتفرقوا عنه ، فالأمير عز الدين سامة صاحب كوكب وعجلون ترك الأفضل والتحق بالعزيز بمصر فاكرمه غاية الاكرام ، وأخذ يحرضه على الأفضل ويحثه على المسير الى دمشق وانتزاعها منه ويقول له :

« إن الأفضل قد غلب على اختياره وحكم عليه وزيره ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد وهو يحمل أخاك على مقاطعتك ويحسن له نقض اليمين ، فانَّ من شرطها صفو الوداد وصحّة النية — ولم يوجد ذلك ، فحنثهم في اليمين قد تحقق وبرئتَ أنت من العهدة ، فاقصد البلاد فانها في يدك قبل أن يحصل في الدولة من الفســـاد ما لا يمكن تلافيه ، إنَّ الله يسألك عن الرعية وهذا الرجل — يعني الأفضل — قد غرق في اللهو وشربه واستولى عليه الجزري وابن العَجَمي » .

وكان الأفضل لما انفصلت العساكر عن دمشق شرع ، على عادته ، يلهو ويلعب وتظاهر بلذاته واحتجب عن الرعية فسموه « الملك النوام » وفوّض الأمر الى وزيره ضياء الدين نصر الله ابن الأثير وحاجبه جمال الدين محاسن بن العجمي فأفسدا الأحوال وكانا السبب في زوال دولته .

وبينما كان الأمر على ذلك فارق الأفضل شمسُ الدين أيدمر بن السّلار أحد أمرائه ووصل الى العزيز فساعد الأمير سـامة على قصده ، ثم وصل الى العزيز أيضاً القاضي محي الدين أبو حامد محمد بن عبد الله بن أبي عصرون فاحترمه وولاه قضاء الديار المصرية وضمَّ اليـه النظر في الأوقاف ، وحرضه القاضي [1] أيضاً وقال له : أنت لا تسلم يوم القيامة — يعني من الحساب

(١) ظنه مصححو النجوم الزاهرة ٥ ٦ : ١٢٢ » شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون ، بدلالة إدخاله في الفهرست مع موارد اسمه ، والصحيح أنه ابنه لأن شرف الدين كان قد توفي سنة ٥٨٥ .

والعقاب ــ وبلغ الأفضل ما قال سامة ومحيي الدين ابن أبي عصرون للعزيز فأقلع عما كان عليه وتاب وندم على تفريطه وعاشر العلماء والصلحاء وشرع يكتب مصحفاً بخطه ولبس الخشن من الثياب واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربه وواظب على الصيام وبالغ في التقشف حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل .

وأما العزيز فانه قطع خبز الفقيه الكمال الكردي من مصر ، فأفسد الكمال عليه جماعته وخرج الى العرب فجمع ونهب الاسكندرية ، فسار اليه العسكر فلم يظفروا به ، وقطع العزيز أيضاً خبز جماعة من الأمراء والفقهاء ، فتركوه الى دمشق والتجؤوا الى الأفضل فأقطعهم إقطاعات . وتجدد الخلاف بين العزيز والأفضل . وفي سنة « ٥٩١ » عزم العزيز على السير الى دمشق والاستيلاء عليها ، فاستشار الأفضل أصحابه فيما يجب أن يفعله ، فمنهم من أشار عليه بمكاتبة أخيه العزيز واسترضائه . وأشار الوزير ضياء الدين نصر الله الأثير عليه بأن يعتصم بعمه العادل ويعتصم بقوته ويستنجده على أخيه . فأصغى اليه الأفضل وخرج من دمشق في رابع عشر جمادى الأولى وسار جريدة الى عمه العادل فلقيه بصفين ، فلما نزلا الحف الأفضل في السؤال له أن ينزل عنده بدمشق ليجيره من أخيه العزيز ، فأجابه وأنزله بقلعة جعبر ثم سار الى دمشق أول جمادى الآخرة فوصل اليها في تاسعه . وكان قد دخل الأفضل حلب على البرية مستصرخاً أخاه الملك الظاهر غازياً ، فتلقاه وحلف له على المساعدة . وقيل إنه لما اجتاز بحلب اتفق مع أخيه الظاهر غازي وتحالفا ، ثم رحل عنها الى حماة فتلقاه ابن عمه الملك المنصور محمد بن المظفر وحلف له على المساعدة ، ثم سار عنه الى دمشق فدخلها في ثالث عشر جمادى الآخرة وبها العادل ، فأفضى اليه بأسراره وعلم العادل اختلال احوال الأفضل وسوء تدبيره وقبح سيرته فانحرف عنه ونهاه فلم ينته ، وأشار عليه بعزل ضياء الدين ابن الأثير عن الوزارة وقال له : هذا يخرب بيتك. فصار لايلتفت إليه ، فحنق عليه ، ثم إن العادل سأل الظاهر غازياً في شيء فلم يجبه اليه ، فغضب لذلك العادل وانفرد عنهم .

وكان الملك الأفضل مع اختلافه في الرأي مع عمه العادل يبالغ في اكرامه وإزاحة علته

حتى ترك له سنجقه وصار يركب في خدمته . وضاق صدر أخيه الظاهر غازي بهذه الحال ،
وكان الظاهر قد نفر منه جماعة من الملوك والأمراء ومن ثم في طاعته ، منهم صاحب حماة الملك
المنصور، وصاحب بارين عز الدين بن المقدم ، فراسلا الملك العادل في الاعتصام به ، وكان من
جماعتهم بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب « تل باشر » فاعتقله الظاهر هو وبني
عمه وطلب منه تسليم حصنه ، فشفع العادل فيهم وكفل بأن يكف أذاهم واستصحبهم الى دمشق
فطلب منه الظاهر الوفاء بكفالته فتعذر عليه ردهم ، وتيسر له ودهم ، فغضب الظاهر لذلك
وراسل العزيز يحثه على الاسراع في القدوم ، فأقبل العزيز وخيم بالفوار .

وشرع العادل في تدبير أمور الأفضل وكاتب الأمراء الأسدية من أصحاب العزيز سراً
يحثهم على تركه والانقطاع الى حزب الأفضل واستمالهم ووعدهم الأموال والاقطاعات الصلاحية ،
وكان الأمراء الصلاحيون قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسديين تنافس لتقدم الصلاحية على
الأسدية ، وكان الملك العزيز قد قدم الصلاحية مماليك أبيه على الأسدية مماليك عمه أسد الدين
شيركوه وحواشيه الأكراد ، ثم دس العادل الأموال الى الأسدية وكان مقدم الأسدية وأمير
أمراء الأكراد حسام الدين أبا الهيجاء السمين ، وكان العزيز قد عزله عن ولاية القدس ، فاجتمعت
الأكراد اليه وراسل العادل الملك العزيز يخوفه من الأسدية ، ويعرفه ما انطوت عليه قلوبهم
من الغل إتماماً للحيلة ، فكانوا إذا لقيهم عرفوا في وجهه التغير عليهم ، فرغبوا عنه وحسنوا
للأكراد موافقتهم في الانصراف عنه . ودارت الأكراد حول أبي الهيجاء السمين كل قدمنا
ذكره وقالوا له : لا نأمن عليك من الناصرية . فارموا أمرهم وحملوا رحيلهم ، فرحل أبو الهيجاء
والمهرانية والأسدية عشية الاثنين رابع شوال من السنة ، ومعه « أزكش » وقصدوا دمشق
ولحقوا بالملك العادل وهم في لأمة الحرب ، فسر بهم لأنهم معظم الجيش ، فأصبح العزيز فلم ير
في الخيام من الأسدية أحداً ، وقيل : بل علم العزيز برحيلهم فما بالى بانصرافهم وقال « صفونا من
أكدارهم » ولم يأمر أصحابه باتباعهم وردهم ، وبقي في خواصه مقيماً في ثلاث الليلة ثم رحل عائداً
الى مصر ، فجاء رسول أبي الهيجاء السمين الى العادل يعلمه برحيل العزيز خائفاً ويدعوه الى

القدوم ليلحقوا العزيز ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية ، وكان الأسدية يكرهون العادل وانما دعتهم الضرورة الى اتباعه . واتفق العادل مع ابن أخيه الأفضل على انتزاع مصر من العزيز ، على أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان ، ورحلا من دمشق في جنودهما وخرج معهما الملك المنصور صاحب حماة وعز الدين بن المقدم وسابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وانضم اليهم عزالدين جرديك النوري نائب القدس ، وأعيد أبوالهيجاء السمين الى نيابة القدس .

وأما الملك العزيز فانه سار على طريق العجون والرملة وخاف من الأسدية الذين بقوا بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول القاهرة ، وكان مقدمهم الأمير بهاء الدين قراقوش نائباً عنه في الديار المصرية فلم يتغير ، وأقام على الطاعة والصفاء والمودة ، ودخل العزيز القاهرة واستقر في سلطنة مصر ، ولما وصل العادل والأفضل ومن معهما الى تل العجول خلع الأفضل على جميع الأسدية ، وعلى الأكراد الأفضلية وأعطاهم الصنوج المعروفة باسم الكوسات وساروا حتى نزلوا بلبيس ، وبها جموع من الصلاحية والعزيزية ومقدم الصلاحية فخر الدين جهاركس ، والأمير هكدري بن يعلى الحميدي على طائفة الأكراد ، فنازلهم جيش العادل وجيش الأفضل ، واشتد الحصار على بلبيس حتى كادت تؤخذ وضاق العزيز بالقاهرة وقلت الأموال عنده . وكان محبباً الى الرعية لما فيه من حسن السيرة وكثرة الكرم والرفق، واحتاج الى استخدام الرجال فلم يجد مالاً فبذل له الأغنياء جملة أموال فلم يقبلها .

وتوقف الملك العادل عن القتال ولم ير انتزاع مصر من يد العزيز صواباً ، وظهرت منه قرائن تدل على أنه لا يؤثر سلطنة الأفضل على سلطنة العزيز فأرسل الى العزيز يطلب منه أن يبعث القاضي الفاضل ، وكان الفاضل قد تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها واعتزل في داره لما رأى من اختلال الأحوال ، فأرسل اليه العزيز يسأله السعي في الأمر فأبى وامتنع ، فتضرع اليه العزيز وأقسم عليه ، فخرج حينئذ الى العادل ، فاحترمه العادل وأكرمه وتحدث معه في الأمر وعاد الى العزيز وتحدث معه فيه . فأرسل العزيز ابنيه الصغيرين مع مملوك له برسالة ظاهرة الى العادل مضمونها « البلاد بلادك وأنت السلطان ونحن رعيتك ، لا تقاتلوا المسلمين ولا تسفكوا

دماءهم وقد أنفذت ولديّ يكونان تحت كفالة عمي العادل ، وأنا أنزل لكم عن البلاد وأمضي الى الغرب » . وكان ذلك بمشهد من الأمراء ، فرقّ العادل له وبكى الحاضرون وقل العادل متأثراً « معاذ الله ، وصل الأمر الى هذا الحدّ ! » .

وكان العادل قد قرّر مع القاضي الفاضل رد خبز(1) الأسدية والأكراد وإقطاعاتهم وأملاكهم وأن يقيم العادل بمصر عند العزيز ليقرّر قواعد ملكه وأن يصطلح الأفضل والعزيز ، وأن يبقى أبو الهيجاء على ولاية القدس ، ثم قال العادل للأفضل . « المصلحة أن تمضي الى أخيك العزيز وتصالحه ، ما عذرنا عند الله وعند الناس إذا فعلنا بابن أخينا ما لايليق ؟ » ففهم الأفضل أن العادل ندم على يمينه ورجع عنها ، وأنه اتفق مع العزيز على أخذ البلاد منه لكنه لم يمكنه إذ ذاك الكلام ومضى الى أخيه العزيز فاصطلحا ، وخرج العزيز من القاهرة الى بلبيس فالتقاه عمه العادل وأخوه الأفضل ووقع الصلح .

ثم دخل العزيز والعادل والأسدية الى القاهرة يوم الخميس رابع ذي الحجة من السنة وأنزل العزيز عمه العادل في القصر وأخذ العادل في اصلاح أمور مصر والنظر في ضياعها ورباعها وأظهر من محبة العزيز شيئاً زائداً ، وصار اليه الأمر والنهي والحكم والتصرف في سائر أمور الدولة جليلها وحقيرها .

وسلطن العادل ابن أخيه العزيز ومشى بين يديه بالغاشية وهي سرج من أديم مخروز بالذهب يخالها الناظر مصنوعة كلها من الذهب تحمل بين يدي السلطان في الاحتفالات . ولو أراد العادل مصر هذه المرّة لأخذها وانما كان قصده الاصلاح بين الإخوة . وضبط العادل أمور مملكة مصر وغيّر الاقطاعات ووفّر الارتفاعات أي الواردات وثمّر الأموال وقرب الى العزيز عز الدين سامة قصار صاحب سره وحاجبه .

ورحل الأفضل يريد الشام ومعه أبو الهيجاء السمين فوصل اليها في أول سنة ٥٩٢ وصار

(1) في النجوم الزاهرة « ٦ : ١٢٤ » طبعة القاهرة « رد خبز الأسدية » . والمصطلح للمعاش والراتب إذ ذاك « الخبز » والجمع « الأخباز » .

الساحل جميعه مع الأفضل وفي حكمه ، ولزم هو العبادة وأقبل على الزهد ، وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة الى وزيره ضياء الدين بن الأثير فاختلّت به الأحوال غاية الاختلال وقبحت أفعاله وكثر شاكوه . ولم ينتفع بالتجارب .

ثم حدث اختلاف ثالث بين العزيز والأفضل وهو أنه لما عاد الأفضل الى دمشق ازداد وزيره ضياء الدين الجزري من الأفعال القبيحة كما ذكرنا وآذى الأكابر من الدولة وبلي الناس منه ببلايا والأفضل في غفلة عن تلك القضايا ، ونفر منه العماد الأصفهاني فارتحل الى مصر ، وكان الأفضل يقبل منه ولا يخالفه ولا يعدي أحداً عليه فكتب قيماز النجمي وأعيان الدولة الى العادل يشكونه ، فارسل العادل الى الأفضل يقول له : « ارفع يد هذا الأحمق السيء التدبير ، القليل التوفيق » فلم يلتفت الى قول عمه ، فاتفق العادل وابن أخيه العزيز على المسير الى الشام لازالة الوزير ضياء الدين بن الأثير من الوزارة وتدبير حكم الشام ووقع الرحيل من بركة الجب ثامن شهر ربيع الآخر من سنة ٥٩٢ بعد أن لم يكن العزيز يريد السفر ، ولكن عمه أشار عليه بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه ، فرآه عين التدبير وكان معهما جميع الأسدية والمماليك .

ووصل العادل والعزيز الى الداروم (١) وأمر العادل باخراب حصنها فقسم بين الجاندارية والأمراء ، فشق على الناس إخرابه لما كان به من الرفق للمسافرين وانتهى الملكان الى دمشق . وكان الملك الزاهر مجير الدين داود بن صلاح الدين قدم رسولاً من حلب الى أخيه العزيز من قبل أخيه الظاهر غازي لتسكين هذا الرهج الثائر ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر والقاضي بهاء الدين يوسف ابن شداد ثم انصرفا من مصر بما طلبوا فمروا بدمشق فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر ، فضاق صدره وطال فكره واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل عمه وأخاه ويسلم لها حكمها وأشار عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير وأصحابه بالتصميم على المخالفة ، وترك المجاملة والملاطفة ، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر ، فشجعه وصبره وتولى أسباب الدفاع ،

(١) في معجم البلدان أن الداروم قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة ٥٨٤ والخبر يدل على أنها عمرت ثم أخرب حصنها .

ثم حلّفوا الأمراء والمقدمين ، وأعدوا مواضع الدفاع ورتبوا رجالاً حوالي دمشق يتناوبون حراستها بكرة وأصيلا، وتفرق الأمراء على الأسوار والأبراج وجاءت رسل الملك الظاهر لاظهار مظاهرة الأفضل ، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولاً فوصل فلك الدين الى المعسكر العزيزي بالداروم وغزة فلم يلق عند العزيز غير الاباء والامتناع ، فبقي فلك الدين هنــــاك أياماً لاصلاح ذات البين ، ولاشك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وأعادوا الرسول الى صاحبه ، وأقاموا ينتظرون الجواب ، فجاءهم من أنبأهم بامتناع الأفضل من الاجابة إلى ما اشترطوا .

ولما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أنّ الأفضل لايسمع من رأيهم وأنه عازم على المحاربة ولا يعدل عن رأي وزيره ضياء الدين بن الأثير مع ما قد عرفه وألفه من شؤم تدبيره شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن ، فراسلوا العادل والعزيز ، واستظهروا لنفسه ، واتفق العــادل مع عزالدين بن الحمصي على فتح الباب الشرقي من دمشق وكان مسلَّماً إليه ، فلما كان يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب ركب العادل والعزيز وجاءا إلى الباب الشرقي ففتحه ابن الحمصي فدخلا دمشق من غير قتال وقال العماد الأصفهاني الكاتب : « فكتب الأولياء من البلد الى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب فما صدّهم عن قصد البلد أحد ، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب فقاتل على ظن قتــال الجماعة ، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة ، فحادوا ولم يكترثوا ، ووصــل العزيز الى الميدان الأخضر ووصل العادل الى باب توما وكان الأمير الأمين به قد استنهضه اليه بكتبه ، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي ، وبات العادل في الدار الأسدية ، ودخل العزيز من باب الفرج وبات في دار عمته الحسامية » وقال ابن تغري بردي : « فنزل العزيز دار عمته ست الشام ونزل العادل دار العقيقي ، ونزل الأفضل اليهما وهما بدار العقيقي فدخل عليهما وبكى بكاءاً شديداً ، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق الى صرخد ، فأخرج وزيره ضياء الدين ابن الأثير بالليــل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل ، فأخذ ضياء الدين أموالاً عظيمـة وهرب الى بلاده » . وقال العماد الاصفهاني « وخرج الأفضل الى العزيز ولقيه ، وتجرع من

هم زوال ملكه ماسقيه ، فلما ملك العزيز دمشق أقام بالميدان الأخضر الكبير الى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه ، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه ، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه ، وتحوّل الأفضل تلك الأيام الى مسجد خاتون وما يجاوره ، ومعه وزيره فهرب ليلا الى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين ».

وقال المقريزي : « فلما أخذ العادل والعزيز دمشق نزل الأفضل من القلعة اليها فاستحيا العادل منه . لأنه (هو) الذي حمل العزيز على ذلك ليوطيء لنفسه ، كما يأتي ، وأمره أن يعود الى القلعة فلم يزل بها أربعة أيام حتى بعث اليه العزيز أبيك فطيس أمير جاندار وصارم الدين خطلخ أستاذ الدار ، فأخرجاه وأخرجا عياله وعيال أبيه وأنزل في مكان ، وأوفى ماكان عليه من دين وما للحواشي من الجوامك ، فبلغ ذلك نيفاً وعشرين ألف دينار ، فبيع بركه [1] وجماله وبغاله وكتبه ومماليكه وسائر ماله ، فلم توف بما عليه ، وقسا عليه أخوه وعمه لسوء حظه ، ثم بعث اليه عمه العادل يأمره أن يسير الى صرخد فلم يجد عنده من يسيره بأهله حتى بعث اليه جمال الدين محاسن عشرة أوصلوه الى صرخد ، وأخذت من الملك الظافر مظفر الدين خضر « بصرى» وأعطيت للملك العادل ، وأمر الظافر أن يسير الى حلب فلحق بأخيه الظاهر . وفي هذه الحادثة يقول ابن خلكان في ترجمة الملك الأفضل علي بن صلاح الدين » وللأفضل شعر فن المنسوب أنه كتب الى الامام الناصر يشكو من عمه العادل وأخيه العزيز لما أخذا منه دمشق :
مولاي إنّ أبا بكر وصاحبه [2] ...

وهي أبيات وُلدت عليه وولّد جوابها على الخليفة الناصر لدين الله ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : « ومما يعزى اليه من الشعر أنه كتب الى الخليفة لما أخرج من دمشق واتفق عليه العادل والعزيز : مولاي إن أبا بكر وصاحبه .. وبلغني أنه كان ينكر هذا الشعر أنه له [3] ».

(١) البرك : المتاع الخاص من ثياب وقماش .
(٢) تراجع الأبيات في الوفيات ١ : ٤٠٨ من طبعة بلاد العجم .
(٣) المرآة « مختصر ج ٨ س ٦٣٨ » من طبعة حيدر آباد الدكن .

قال المقريزي : ويقال إن العادل كان قد قرّر مع الملك العزيز وهو بالقاهرة أن الملك العزيز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها ويعود العادل الى مصر نائباً عن العزيز ، فلما ملك العزيز دمشق وأخرج أخاه الأفضل منها انكشفت مستورات مكايد عمه فندم على ما قرّره معه وبعث الى أخيه الأفضل سراً يعتذر اليه ويقول له : لا تنزل عن ملك دمشق » فظنّ الأفضل هذا من أخيه خديعة وأعلم العادل به فقامت قيامته وعتب العزيز وأنّبه ، فأنكر أن يكون صدر منه هــذا وحنق على أخيه الأفضل وأخرجه الى صرخد على أقبح صورة . واختفى الوزير ضياء الدين الجزري خوفاً من القتل ثم لحق بالموصل (١) » .

وبما قدمنا من أخبار مفصّلة يظهر أن نصر الله بن الأثير كان عقيم السياسة ، عنيداً خالياً من الحكمة ، وأنه أفسد على مخدومه الملك الأفضل مملكته واحتجن أموالها وهرب بها الى الموصل ، ومن هنا يظهر نوع من نفســية الكتاب الذين إذا تولوا أمراً من أمور الدولة وشأناً من شؤونها ، فعلوا الأفاعيل المنكرة ، هــذا وإنّ أعظم أسباب انحراف العادل عن ابن أخيه الأفضل هو إقراره لابن الأثير على الوزارة مع شدة رغبة العــادل وأكثر الأمراء في عزله عنها ، وإنما كان العادل يبغض نصر الله بن الأثير لفساد رأيه وشدة قلمه في مراسلته ، فمن ذلك كتاب كتبه عن الأفضل الى عمّه العادل وفيه يظهر أسلوبه الجميل ، ونصه :

« ندمت على أمر مضى لم يُشر به نصيح ولم يجمع قواه نظامُ

ربّ وثوق يقود الى الندم ، وتودّد يدعو الى التهم ، وقد يدلّ الحلم على صاحبه ، ويُطمع في جانبه ، ولولا ذلك لما استلين عودي فعُجم ، واستضعف ركني فهُدم ، ولا اشكو ما أشكوه إلا الى عمي ، وصنو أبي الذي نفره نفري ، وهو الذي قلب فُواقي على وتري ، وعلمني التظلّمَ من الأيام ، وأراني ضوء النهار بعين الاظلام ، ولقد أضاع فيّ إحسانه ، وخالف في قطع رحمي

(١) راجع في جميع هذه الأخبار « الروضتين ٢ : ٢٢٨ — ٢٣١ » والسلوك « ١ : ١١٦ — ١٣٥ » والنجوم الزاهرة « ٦ : ١٢٠ — ٥ » والمرآة « ٨ : ٤٣٥ ، ٤٤١ » . ولم ننقل من الكامل لعز الدين بن الأثير لأنه طوى ذكر أخيه نصر الله تعصباً له مع أنه رأس الفتنة .

سنة الله وكتابه ، وجعل أيامي منه كيوم البعث الذي يتنا كر الناس فى انسابه واسبابه . هـذا وقد علم أني اتخذته أباً أرجو برّه ، وموليً أطيع أمره ، وكنت له كنانة لا يطيش لها سهم ، ولا يؤسى منها كلم ، ولم أزل ساعياً في تقديم أوده ، وإعلاء كلمته وبده ، وانتهى بي الجدّ في ذلك إلى أني شاققت بني أبي لمواصلته ، وقابحتهم لمجاملته ، وشققت في توخي إيثاره عصاهم ، وجعلت أدناهم الى أقصاهم ، حتى أصبحت من إخائهم عرياً ، وكنت تميمياً فصرت بكرياً ، هذا ولم يزل يحـذرني منـه النُصاح ذوو السرائر ، وأولو الأبصار والبصائر ، ويقولون : هـذا يخدعك بكيده ، ويجعلك حبا لشبكة صيده ، فما فتحت لأقوالهم سمعاً ، ولا وجدت لها مني موقعاً ولا وقعاً ، بل مضيت على ما أنا عليه من شدّ يدي بحبالاته ، وعقد قلبي على موالاتـه ، وقات: هذا العضد وهـذا الساعد ، وهذا العم الذي إذا مضى الوالد فهو الوالد ، وقد بدأته بالاحسان الذي أظن أنه أهله ، وليس جزاؤه عند الأحرار مثله ، ولم أعلم أنه خمر بواديه ، ونصب لي أشراك عواديه ، فلشد ما نبذ ذمة الرحم خلفه ظهرياً ، واتخذ العهد الذي في عنقه شيئاً فرياً ، وانقلب ماكان يظهره من طيب الاقوال ، الى ما كان يضمره من خبيث الأفعال ، فلقيت منه ما لقي مجير أم عامر ، وكافأني مكافأة التمساح للطائر ، وأنا راج أن يقاتله إحساني الذي كفره وما شكره ، ونسيـه متعمـداً وما ذكره ، فان للاحســـان جنوداً ترمي في غير سهام ، وتقاتل في كل معترك بحسام ، وتؤيد بالنصر في كل مقام ، ومن شأنها أنها تناضل ولا يشعر بفضالها ، وتسري فتجول بين الظالمة وآمالها ، فكم ثنت من يد قبضت على سيفها ، ودعت الى حيفها ، وما أمسكت يد جود ، وعنان جحود ، إلا غدا صاحبها صريعاً ، ولم يجد له من دون الله تبيعاً ، فينبغي له أن يراجع نظره فيما أتاه ، وأن يجتنب قول موسى لفتاه ، ولا يكن ممن اطمأن الى مسـالمة زمانه ، واطراد أمر سـلطانه ، فانها الأيام التي ما سالمت الاحاريب ، ولا واصلت إلا جانبت ، ولا تأتي همومها إلا من جهة أفراحها ، كما لا تأتي ظلمة ليلها إلا من مطلع صباحها ، ولطالما أعجزت قدراً ، وزعزعت سريراً ، وأذهبت نعيماً وملكاً كبيراً « وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً » فان كان بُعد العهد بهؤلاء أنساه الاعتبار ، فأوجب له

الاغترار فلينظر الى ما رآه عيانا ، وكان له سلطاناً ، وهو أخوه الذي خفقت في الآفاق ذؤابة علمه ، واستجابت الدول لأمر سيفه وقلمه ، وكان أثبت منه ملكاً ، وأوسع بلاداً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فمشت الأيام على دولته فمحت آثارها ، واختفت أخبارها . هذا ولم يزل يجيل قلوب الناس على الحسني ، ويغرس فيها ما يرجو منه طيب المجني ، وقد رأيت ما فعلوه بنيه وما بالعهد من قدم ، وما بالقوم عن ذلك الاحسان عمى ولا صمم ، فكيف ترجو أنت مع الاساءة أن يستمسكوا بسببك ، أو يحسنوا الخلافة عنك في عقبك ، هيهات تلك أماً في النفس المائمة ، ودواعي الهوى الخائنة ، وأنا أعظك أن تكون ممن تولى فقطع رحمه ، وخفر ذممه ، فإن كل دنيا ستنصرم ، وكل من حكم عليه ظلماً سيحتكم . « والذين أصابهم البغي هم ينتصرون » .

وقد بلغني أنه يتوعدني بنكره ، ويوقد علي أحناء صدره ، وأنه تألى على الله ليأخذنّ على يدي ، وليلبسنّ يومي بغدي ، ويوشك أنه أخذ من الله موثقاً بالخلود ، وتابعته الأقدار على اقتسار الجدود ، ومع اليوم وغد ، وما من يد إلا ولله فوقها يد ، وكم بغى في هذه الأرض من باغ ففوجيء بالتدفيع والتدمير ، وحالت الأيام بينه وبين ما يقدره من المقادير « وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير » والئن هزتني منه هذه النبوة التي طاشت لها الأحلام ، وزلزلت فيها الأقدام ، فما خف لها الآن جبلي ، ولا تصرّفت فيها بحولي ولا بحيلي ، لكنني قد مددت الحبل معه الى آخره ، وارتقبت ما تصير اليه عقبى مصايره ، وأنا أدعوه الى كلمة سواء بيني وبينه أن يبغي أحدنا على صاحبه ، ولا يذهب غير مذاهبه .

فان تدعني للشرّ أسرع وإن تُهب بصلحي فقد أبقيت للصلح موضعا

ويعز عليّ أن أعضد شجرة أنا من أصلها ، أو أقفر داراً أنا من أهلها ، فأكون في ذلك كمن فدى بمهجته الدامية عن يده الرامية ، ولولا ذلك لأثرتها فتنة تخشى مراكبها ، وتحمر غواربها ، وتقبح عواقبها ، وتكون دخاناً يغشى الناس منه عذاب أليم ، ولا ينجو منه بر ولا أثيم ، ولا بريء ولا سقيم ، ولكنني وضعت له جنبي ، وكففت عنه غربي ، وفارقت الأحداث وطلقتها ولزمت الدعة وتعلقتها ، فلا يبعثني على مراجعة الحال المطلقة ، ولا يحملني بعد سبيل الطاعة

على السبل المتفرقة ، فلقد أبيح للمضطر أن يركب كل محذور محظور ، ويستخلص حقّه بالحق والزور ، ويدفع ظلامته بما وجد من السبيل وهو معذور ، وإذا أخرج الحليم خرج من شيمه ، وانتضيت النار من وارق سَلَمِه ، فلا يظنّ أنّ قد حي اباريه ، ولا لبلي لساريه ، وقد طالما بُلي عزمي فوجد نفاذاً في الأسداد ، طلاعاً للأنجاد ، فما قدح إلا أسرج ، ولا كوى [1] إلا أنضج ، ولا جهز بعثاً من بعوثه إلا غنيت آراؤه عن جنود شهّد ، أو عصفت سيوف من رؤوس ركد ، وذلك العزم باق لم يبن ولم يهن ، ومتى استطارت ناره ملأت الأقطار ، وسبقت الحذار ، وقلبت القلوب والأبصار ، والتجربة تنصحك [2] أن توقظ شراً قد استدام مكانه ومنامه ، وكره الله والناس أن تستعاد أيامه . فانّ ذلك السيف في يد القاتل ، وربما زاد الآجل على ما تقدم من العاجل والسلام [3] » .

ويمثل هذا الكتاب الملآن من السّباب ، المحشوّ بزخرف القول ألّبَ نصر الله بن الأثير الناس على الملك الأفضل وخصوصاً عمّه ؛ فان مثل هذا الكلام لا يخاطب به رجل كان العضد الأيمن للدولة الأيوبية والسيف الحسام لصلاح الدين الأيوبي ، الذي خاض الحروب وكابد الكروب في المعارك الاسلامية والوقائع الصليبية ، حتى شاب فيها ، وليست الأفعال تسطير السطور ، ولا تهويلاً بأماني الغرور كما في هذا الكتاب .

أجل هرب نصر الله بن الأثير بالأموال التي احتجنها من مملكة الأفضل الى الموصل ، ولما توصل الأفضل الى الاتابكية أي الوصاية التربوية على الملك المنصور محمد ابن العزيز عثمان بمصر بعد وفاة العزيز سنة ٥٩٥ بقليل التحق به نصر الله بن الأثير وقيل : بل صار اليه قبل ذلك وصحبه الى مصر . وينقض هذا القول ما ذكره هو في المثل السائر « ص ١٠٧ » من أنه كتب الى الأفضل سنة ٥٩٥ كتاباً يهنئه فيه بتملك مصر ، ولحقه شؤمه أيضاً فان الملك العادل الذي ناله من

(١) ليته قال « وما شوى إلا انضج » فأما الكي فيستعمل معه « الاحراق » .
(٢) أي تمنعك .
(٣) الجزء الثاني من رسائل ضياء الدين بن الأثير « نسخة الجامعة الأمريكية ببيروت P ٦٢ T. A W. S. ٨٩٢ . ٧٦ ص ٣٩ — ٤٧ » .

قوارص ابن الأثير ما ناله انتزع مصر من الملك الأفضل لاستحكام المداوة بينهما ، وعوضه منها بلاداً من بلدان الجزيرة ، ولم يبق بيده منها إلا سميساط [1] . وكيف جرؤ على كتب هذا الكتاب من كان يعتذر إلى عمه بمثل قوله فى كتاب آخر يستعطفه ويتنصل اليه : « من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوي الألباب ، ويمثل لهم الخطأ فى مثال الصواب ، ولولا ذلك لما زل الحكيم ، واعوج المستقيم . والملوك تقبل اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية لا زال عرفها مأمولاً ، واحسانها عند الله مقبولاً ، وفعلها فى المكرمات مبتدءاً ، إذا كان فعل الأيادي مفعولاً ، وتستغيث الى عفوها ، الذي يكفي فيه لفظة الاعتذار ، ولا ينفد بمواظبة الآصار ، ولو عرف ذنبه باديا لقرع له سنّ الندامة ، وعاد على نفسه بالملامة ، ولما كان عجيباً أن يكون مليماً ، وأن يكون مولانا كريماً ، لكنه حمل إصرة الذنب وهو بريء من حملها ، وخاف أن تكون هذه كأخواتها التي سلفت من قبلها ، والأمور المتشابهة يقاس البعض منها على البعض ، والملسوع لا يستطيع أن يرى مجر حبل على الأرض ، ولم يجترم المملوك الآن جريمة سوى أن فر الى الاعتصام ، وألقى بيده الى أقوام لم يكونوا له بأقوام ، وإذا ضاق على المرء أقربه كان الأبعد له من ذوي الأرحام ، وليس بأول من ذهب هذا المذهب ، ولا بأول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب ، ولئن قال بعض الناس إنه عجل فى اعتصامه وفراره وأنه لو صبر لحمد مغبة اصطباره فهذا قول من لم يعرف حال المملوك فيقيم له عذراً ، ولا ابتلي بما ابتلي به من قوارص مولانا مرة بعد أخرى ، ولقد تكاثرت عليه هذه الأقوال المؤنبة حتى ملأت طرفه كحل السهاد ، وجنبه شوك القتاد ، وأصبح وهو يرى أنه زلق فى خطيئته زلقاً ، وغصّ بنومه من أجلها شرقاً ، وبدت له سوأته حتى طفق يخصف عليها ورقا ، ومع هذا فانه واثق أن حلم مولانا لا يؤتى من الزلل ، وأن حصاة الذنوب لا تخف بوزن ذلك الجبل ، وها هو قد جاء نازعا وللنازع العتبى ، وعاد مستشفعاً ولا شفيع أكرم من القربى [2] ... »

(١) مدينة كانت على شاطيء الفرات في طرف بلاد الروم أي تركية الحديثة غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن قال ياقوت : ومالكها في هذا الزمان الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر يوسف ابن أيوب صلاح الدين » .

(٢) المثل السائر « ص ٤٧ » طبعة المطبعة البهية بمصر سنة ١٣١٢ .

وخرج الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين من مصر ولم يخرج نصر الله بن الأثير في خدمته لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يريدون الفتك به ، فخرج منها مستتراً . وله في كيفية خروجه مستتراً رسالة طويلة شرح فيها حاله وهي في ديوان رسائله ، وغاب عن مخدومه الأفضل برهة قصيرة ولما استقر الأفضل في سميساط عاد نصر الله الى خدمته وأقام عنده مدة ثم فارقه في ذي القعدة سنة ٦٠٧ واتصل بخدمته أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره ، وخرج من حلب مغاضباً وعاد الى بلده الموصل فلم تستقم حاله فيها ، فذهب الى إربل فدخلها في شهر ربيع الأول سنة « ٦١١ » فلم يجد فيها مغنى ، فسافر الى سنجار ولم يجدها قراراً ثم عاد الى الموصل وصمم الاقامة فيها وصار كاتب الانشاء للملك القاهر عز الدين مسعود الثاني وابنه ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني بن نور الدين ارسلان شاه وأتابكه يومئذ بدر الدين لؤلؤ النوري وذلك في سنة « ٦١٨ » قال ابن خلكان : « ولقد ترددت من إربل الى الموصل أكثر من عشر مرات ونصر الله بن الأثير مقيم بها وكنت أود الاجتماع به ، لآخذ عنه شيئاً لما كان بينه وبين الوالد - رحمه الله تعالى - من المودة فلم يتفق لي ذلك ، ثم فارقت بلاد المشرق وانتقلت الى الشام وأقمت به مقدار عشر سنين ثم انتقلت الى الديار المصرية وهو في قيد الحياة ، ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة ... وتوفي في إحدى الجماديين سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد وقد توجه اليها رسولاً من جهة صاحب الموصل ، وصُلي عليه من الغد بجامع القصر (1) ودفن بمقابر قريش (2) في مشهد موسى ابن جعفر - سلام الله عليهما - قال أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادي في تأريخ بغداد : توفي نصر الله بن الأثير يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة . وهو أخبر لأنه صاحب هذا الفن وكان عندهم » . ونقل القول الثاني جمال الدين محمد بن علي

---

(١) من بقاياه جامع سوق الغزل الجديد المشيد أيام الحكم العثماني بالعراق وكان جامع القصر يسمى أيضاً « جامع الخليفة » ، ثم سمي في العهد العثماني « جامع الخلفاء » وكان يصلى فيه على جنازة كل كبير من أرباب الدولة والعلماء والفضلاء والفقهاء ، وهو تشريف رسمي للمتوفى ، ويصدر الأمر أو الاجازة من ديوان الخلافة.

(٢) أي الكاظمية الحالية .

المعروف بابن الصابوني في كتابه المؤلف في الانساب المعروف بتكملة إكمال الكمال وقد قدمنا نقلاً منه .

وقال مؤرخ آخر « دفن في صحن مشهد موسى بن جعفر ـ عليه السلام[(1)] » . وجاء في ذيل الروضتين لأبي شامة أنه « توفي بالورقة من بغداد وهو مرسل اليها » هكذا جاء الاسم في نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٨٥٢ ورقة ١٨٦ والنسخة المطبوعة على يد عزت العطار الحسيني وهي مشوهة « ص ١٦٩ » ولعل الأصل « الزرقة » وكانت على دجلة فوق بغداد .

وقد جاء في المثل السائر كتب لمؤلفه كتبها عن الملك الأفضل تفيد في تعيين مواضع من سيرته السياسية ففي « ص ٤٦ » يقول : « ومن ذلك ما كتبته عن الملك الأفضل علي بن يوسف الى الديوان العزيز النبوي ببغداد ... »

وفي « ص ٤٧ » منه يقول : « ومن ذلك ما كتبته عنه الى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل اليه . » وقد نقلناه من قبل ، وقال « ص٢٦٦ » : « وأما ما أتيت فيه بالحسن من المعاني ولكنه غير مخترع فمن ذلك مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين أرسلان بن مسعود صاحب الموصل الى الملك الأفضل علي بن يوسف يتضمن تعزيته وتهنئته ، أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر ، وأما التهنئة فبوراثة الملك من بعده ... »

أوصاف المؤرخين والأدباء له

قال جمال الدين أبو حامد محمد بن علي المعروف بابن الصابوني في الاستدراك على مؤلف إكمال الكمال : « وذكر في باب الأثير جماعة منهم الأخوان الفاضلان أبو السعادات المبارك وأبو الحسن علي ابنا محمد بن عبد الكريم الجزري وأغفل ذكر أخيهما الوزير الفاضل أبي الفتح نصرالله فانه كان فريد دهره ، ووحيد عصره ، في صناعة الكتابة والانشاء وله التصانيف البديعة

(1) التأريخ الذي سميناه « الحوادث الجامعة ص ١٣٦ » .

والرسائل الصنيعة ، ختم به هذا الشأن ، وسار ذكره في جميع الأقطار والبلدان ... وأجاز لي مسموعه ومنثوره ومنظومه [1] » .

وقال ياقوت الحموي في « جزيرة ابن عمر » وقد نقلنا قوله آنفاً من معجم البلدان : « وبنو الأثير العلماء والأدباء وهم مجد الدين المبارك وضياء الدين نصر الله وعز الدين أبو الحسن علي ... كل منهم إمام ، مات مجد الدين والآخران حيان في سنة ٦٢٦ » .

وقال زكي الدين المنذري : « وفي إحدى الجماديين توفي القاضي [2] الأجل الفاضل أبو الفتح نصر الله بن محمد ... المنعوت بالضياء المعروف بابن الأثير ببغداد وله تصانيف مشهورة في النظم والنثر منها المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر وغير ذلك [3] ... » .

وقال ابن خلكان : « ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله كتابه الذي سماه (المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر) وهو في مجلدين جمع فيه فأوعى ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ... وله كل معنى مليح في الترسل وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله فاذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات ولم يكن له في النظم شيء حسن [4] ... » .

وقال مؤلف كتاب الحوادث الذي وسمناه بالحوادث الجامعة « ص١٣٦ » : « كان كاتباً عالماً فاضلاً متفنناً في علم الكتابة ، مقتدراً على الانشاء ، ورد الى بغداد مراراً في رسائل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ... » .

---

(١) « تكملة اكمال الاكمال ، نسخة الأوقاف ببغداد ٨٥٢ الورقة ٧٧ » .

(٢) اعتاد المصريون أن يطلقوا لقب « القاضي » على غير القضاة من الكتاب والفضلاء كالقاضي الفاضل ومن ذلك تلقيب المنذري نصر الله بن الأثير بهذا اللقب .

(٣) التكملة لوفيات النقلة « نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية ١٩٨٢ د ج ٢ « ص ٢٥٥ » .

(٤) الوفيات « ٢ : ٢٨٧ — ٢٩١ » طبعة بلاد العجم ونقل اكثر ما في الوفيات قطب الدين اليونيني من ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٦٤ » طبعة حيدر أباد الدكن .

وقال جمال الدين أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي في تاريخه « العسجد المسبوك » : « كان بارعاً في فنون الأدب ، كاتباً بليغاً وصدراً نبيلاً ، عالماً متفنناً في علم الـكتابة ، مصدراً على الانشاء وكتابة الرسائل [رأساً] في المعاني المخترعة واليه انتهى علم الكتابة في زمانه وبه ختم فن البلاغة وله عدة تصانيف حسنة مفيدة وله رسائل مدونه (١) » .

(١) العسجد المسبوك « الورقة ١٥٧ » من نسخة دار الـكتب المصرية بالقاهرة .

سيرته الأدبية

وبعد ، فقد مرَّ بك ان ابن الأثير ، عاش في عصر الحروب الصليبية ؛ عصر الفتن والحروب والقلاقل وعصر التنازع بين الدويلات الاسلامية ، ولم يكن الرجل بمعزل عن الحياة الصاخبة ، كان وزيراً مباشراً للسياسة والملك ، متنقلاً من بلد الى بلد ومن أمير الى أمير ، كتب لصلاح الدين بمصر والشام ، ووزر لابنه الأفضل بالشام ، والتحق بصاحب حلب غازي ابن صلاح الدين ، والتحق بصاحب الموصل واتصل بأولي الأمر وافداً ورسولاً في بغداد . وحياته قبل أن يتصل بصلاح الدين ليست بذات خطر ، ولذلك لانكاد نجد المؤرخين يتحدثون عنها حين يتحدثون عنه ، ولكنها تبدأ بصلته بصلاح الدين ، وقد اتصل به بعد أن كملت أداته ونضج ؛ يقول ابن خلكان (١) وقد ذكرنا قوله من قبل « ولما كملت لضياء الدين الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين ... في شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة فوصله القاضي الفاضل بخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة من السنة ... » واذا ما علمت أنه توفي سنة ٦٣٧ وأنه توفي وافداً الى بغداد ، وكان قد توجه اليها رسولاً من صاحب (٢) الموصل ، اذا ما علمت هذا رأيت أن ابن الأثير قضى خمسين عاماً ، بعد إكمال أدواته كما يقول ابن خلكان ، وكان حركة لاتهدأ في السياسة والعلم ؛ كان يتنقل في البلدان وافداً على الملوك والأمراء ، وكان على معرفة بلغات عصره على مايبدو لنا يقول : « وكنت سافرت الى بلاد الروم في سنة ستمائة ، فلما دخلت مدينة ملطية اخبرت عن خطيبها ان عنده أدباً ، وأنه يقول الشعر ، فقصدت لقاءه وألفيته كما

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٥ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٩ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٢ .
(٣) الوشي المرقوم ص ٧١ — ٧٢ ، طبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ .

أخبرت عنه . وعرض عليَّ قصيداً من شعره ، وهي مائة بيت ؛ كل عشرين منها على لغة ، فكان متضمناً خمس لغات : العربية والفارسية والتركية والرومية والأرمنية ، فالجميع على وزن واحد ، وقافية واحدة ، إلا أنه كان في غير اللغة العربية أبرع منه في اللغة العربية ، وهذا من أغرب ما شاهدته ... » وترى من هذا ان ابن الأثير كان - لايقيناً يقصد أهل العلم ، ويتحدث اليهم ، وترى انه عارف بهذه اللغات معرفة يستطيع أن يفرق فيها بين الجيد والرديء من الشعر ، حتى يرى شعر خطيب ملطية في غير العربية أحسن منه بالعربية ، وتراه في غير ما مكان من كتبه يشير الى معرفته باللغات وقراءته فيها ، يقول وهو يتحدث عن الكناية والتعريض » في كتابه المثل السائر « واعلم[1] أن هذين القسمين من الكناية والتعريض ، قد وردا في غير اللغة العربية ، ووجدتها كثيراً في اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منها بالكثير . ومما وجدته من الكناية في لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة كسرى وخواصه ، فقيل له : إن الملك يختلف الى امرأتك فهجرها لذلك ... » .

ويقول في موضع آخر من كتابه : وهذا الكتاب على لغة اليونان[2] وأول كتاب الفصول لأبقراط في الطب قوله : العمر قصير ، والصناعة طويلة . وربما لا نعجب أن ترى الرجل يعرف هذه اللغات ، لأن عصره عصر اختلطت فيه الأمم المختلفة والحضارات المختلفة ، وكان يحسن به وهو الوزير ، أن يعرف هذه اللغات التي قد يحتاج الى أن يقرأ بها وأن يكتب بها في بعض الأحيان .

ولم يكن ابن الأثير بالرجل الجبان الذي يحسن الكتابة ، ولا يشهد الحروب ؛ كان يرافق صلاح الدين ، ويشهد الحرب معه ويذوق حلاوة النصر وخيبة الهزيمة ، يعرض للحديث عن هذا في رسائله يقول : « وكنت[3] في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بأرض فلسطين في الجيش الذي كان قبالة العدو الكافر من الفرنج ، لعنهم الله ، وتقابل الفريقان على مدينة يافا ، وكان الى

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢١٥ . (٢) المثل السائر ج ٢ ص ٢٨١ .
(٣) المثل السائر « ج ١ ص ٥٥ » .

جانبي ثلاثة فرسان من المسلمين ، فتعاقدوا على الحملة الى نحو العدو ، فلما حملوا صدق منهم اثنان وتلكأ واحد ... » وتراه في غير ما موضع من كتبه ورسائله يفيض في وصف الحرب وآلاتها ، ويتحدث عن القتال فيقول (١) :

« وسبق ألم الموت ألم الجراح ، ونفذت غير مخفية لسرعتها أسنة الرماح ، وحصل القوم في القبضة ، وذموا عقبى النهضة ، وجيء بالأسرى مقرنين بالأصفاد ، موقنين أن رؤوسهم عواري عن تلك الأجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن يتكر عنقه لأنكره ، ولا يودُّ - وهو المعظم - أن يقال ما أعظمه بل يقال : ما أحقره ، وتصرفت أيدي المسلمين في القتل والنهاب ، وكان للسيف رقاب وللسبي رقاب ... » .

وقد يعمد الى وصف بعض آلات الحرب ويقول في المنجنيق « (٢) ... ونصب المنجنيق ، فجثم بين يدي السور مناصباً ، وبسط كفه اليه مواثباً ، ثم تولى عقوبته بعصاه التي تفتك بأحجاره ، واذا عصى عليها بلد أخذت في تأديب أسواره ، فما كان الا أن استمرت عقوبتها عليه ، حتى صار قائماً حصيداً ، وعاصيه مستقيداً ... » .

هذه الحياة الصاخبة التي تقلب فيها ابن الأثير هيأت له مادة الوصف ، ومادة الكتابة الإنشائية ، ويبدو لنا أن رسائله الكثيرة التي لم تنشر بعد ستكون سجلاً حافلاً بحياة الحرب وحياة العلم والسياسة في عصره ، ولعلك ترى أن هذه المواقف ، أعني مواقف الحروب أولى أن يقال فيها الشعر لأنه أمعن في التعبير عن العواطف من النثر ، وابن الأثير ينظم الشعر ولكن الرجل كاتباً أحسن منه شاعراً ...

ولم يقتصر الرجل على الحياة الصاخبة وحدها يستمد منها مادة حديثة بل نراه يدقق النظر في كل ما حوله ، وقد يستخلص الحكمة من أتفه الأمور وأيسرها وهو يوصي الأديب أن يتنبه الى هذا ، ويلتفت اليه ويقول : « اعلم أن الكاتب يحتاج الى التشبث بكل فن والنظر في كل علم وإرصاد السمع لمحاورات الناس ، فانه لا يعدم من ذلك فائدة فإن كلمة الحكمة ضالة المؤمن ،

(١) المثل السائر جـ ١ ص ٨٩ . (٢) المثل السائر جـ ١ ص ١٣٩ .

لحيث وجدها فهو أحق بها ، وقد تتبعت أقوال الناس في محاوراتهم ، فاستفدت بذلك فوائد كثيرة ، حتى من أ كار وفلاح ، وأعجمى من الأعجام الأغتام ، ومن يجري مجراهم ، وقد تصدر كلمة الحكمة من الجاهل بمكانها ، ورب رمية من غير رام ... » .

وزاد على هذا حتى رأى لزاماً على الكاتب « [1] ... أن يعلم ما تقوله النادبة في المأتم ، وما تقوله الماشطة عند جلوة العروس ، وما يقوله المنادي في السوق على السلعة ... » .

وعمد الى الكتب يقرؤها ويتدبرها ، وقد مر بك حديثه عن الانجيل ، أما القرآن فقد أولع به ، وابتدع الكثير من موضوعات البيان بتدبره وإنعام النظر فيه حتى عده آلة من آلات التأليف ، [2] وأوصى بحفظه ،والممارسة لغرائبه والخوض في بحور عجائبه .

وقال في مقدمة كتابه الجامع الكبير في الحديث عن علم البيان [3] : « لمحت في أثنـــاء القرآن الكريم من هذا النحو أشياء طريفة ، ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة ، فمرضتها عند ذلك على الأقسام التي ذكرها هؤلاء العلماء ، وشرحوها ، والأصناف التي بينوها في تصانيفهم وأوضحوها ، فألفيتهم قد غفلوا عنها ، ولم ينبهوا على شيء منها ، وكان ذلك باعثاً لي على تصفح آيات القرآن العزيز ، والكشف عن سره المكنون ، فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضرباً من علم البيان ، لم يأت بها أحد من العلماء الأعيان ، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمدته ، وخلاصة هذا العلم وزبدته ، بحيث أحرزت هذه الفضيلة ، وحصلت عندي هذه العقيلة أحببت أن أفرد لها كتاباً ، وأفصلها فيه أقساماً وأبواباً ... » وهكذا تراه يتعلق بالقرآن الكريم ، ويشرع بعد ذلك يعقد باباً في تفضيل النثر على الشعر ويجعل أول أسبابه في هذا التفضيل أن القرآن الكريم ورد نثراً [4] .

وكذلك فعل في حيث الرسول الكريم وجعله أحد الأدوات التي تلزم المترشح لصناعة الكتابة ، وحسبك منه ان جعل كتاب الوشي المرقوم مبنياً على مقدمة [5] وثلاثة فصول جعل

(١) الوشي المرقوم ص ٤ـ٥ . (٢) انظر ص ٧ من هذا الكتاب .
(٣) أنظر ص ٧ من هذا الكتاب . (٤) انظر ص ٧٣ من هذا الكتاب .
(٥) أنظر ص ٤ من الوشي المرقوم طبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ ه .

الفصل الأول فى حل الشعر ، وجعل الثاني فى حل آيات القرآن ، والثالث في حل الأخبار النبوية .

ولم تقتصر ثقافته على هذا بل عمد الى الشعر حتى قال في كتابه الوشي المرقوم « [1] وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن أوس وأبي عبادة البحتري ، وشعر أبي الطيب المتنبي ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني ، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً ، فلا تقنع أيها الخائض في هذا البحر الذي لا ساحل له إلا بأن تفعل ما فعلته ، وتسلك ما سلكته » .

ونظرة واحدة إلى مؤلفات ابن الأثير تريك سعة باعه وحذقه فى شتى صنوف المعرفة الشائعة فى عصره . كتب الوشى المرقوم فى حل الآيات القرآنية الكريمة وحل حديث الرسول الكريم وحل الشعر . وكتب كتاب « [2] المفتاح المنشا في حديقة الإنشا » وقد تحدث به عن صناعة الكتابة ، وله « مؤنس الوحدة » وقد جمع به مختارات من الشعر ونسخة منه محفوظة بمكتبة كوبرلي بالاستانة ، و « كتاب الأخبار النبوية » ، يقول عنه « [3] وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، كلها تدخل فى الاستعمال ، وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهي مطالعته فى كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذ عني منه شيء . » وله كتاب أدعية يقول فيه [4] « وكنت ألفت كتاباً فى ذكر أدعية مخصوصة ضمنته مائة دعاء ، مما يوضع فى الكتب السلطانية والاخوانيات ... » وله كتاب فى « السرقات الشعرية »

(١) انظر ص ٩ — ١٠ من طبعة ثمار الفنون سنة ١٢٩٨ هـ .
(٢) مصور بدار الكتب المصرية (برقم ٥٠٧٠ أدب) والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي مطبعة نهضة مصر ص ٣٣٧ .
(٣) في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي ص ٣٨ . والمثل السائر ج ١ ص ١٢٨ .
(٤) الوشي المرقوم ص ٧٠ .

يشير اليه في كتابه المثل السائر إذ يقول « ... واعلم أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثروا ، وكنت ألفت فيه كتاباً ، وقسمته ثلاثة أقسام : نسخاً ، وسلخاً ، ومسخاً »[1] . وله « مجموع » اختار[2] فيه شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي وهو في مجلد واحد كبير . وله كتاب « المرصع في الأدبيات » وقد طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٤ هـ وطبع في ألمانيا سنة ١٨٩٦ وله « المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء » يقول فيه ابن خلكان[3] إنه نهاية في بابه . وله « البرهان في علم البيان » وجاء في تأريخ آداب اللغة العربية لجرجي[4] زيدان أنه مخزون في برلين ، وذكر له أيضاً « رسالة في الأزهار » ، وقال إنها محفوظة في[5] باريس . وفي كتاب هداية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي طبعة استانبول سنة ١٩٥٥ المجلد الثاني ص٤٩٣ أنه صنف من الكتب « الاستدراكات » .ورسالة في الضاد والظاء و « رسالة في أوصاف مصر » وله ديوان « ترسل » في عدة مجلدات .

ولعل أشهر هذه الكتب كتابه المثل السائر ، وهو كتاب شهر به ابن الأثير وأحدث ضجة في حياة الرجل وبعد مماته وألفت الكتب في التعصب له والتعصب عليه ، قال صاحب كشف[6] الظنون : « وصنف بعضهم كتاباً سماه « الروض الزاهر في محاسن المثل السائر » وصنف عز الدين بن ابي الحديد كتاباً سماه الفلك الدائر على المثل السائر » ، وصنف أبو القاسم محمود بن الحسين الركن السنجاري المتوفى في عام ٦٤٠ هـ كتاباً رد فيه عليه وسماه : « نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر » وصنف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى في عام ٧٦٤ كتاباً سماه : « نصرة الثائر على المثل السائر » وصنف عبد العزيز بن عيسى كتاباً سماه : « قطع الدائر عن الفلك الدائر ... » ولعلك ترى معنا أن عناوين هذه الكتب وحدها كافية في أن

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦٥ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٨ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٩ .
(٣) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٧ . (٤) هداية العارفين ج ٢ ص ٤٩٣ .
(٥) تأريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٥١ . (٦) كشف الظنون ج ٢ ص ٨٧٦ . وانظر (٢ — ٢٢٢ بولاق مصر) وانظر ص (يط) من مقدمة المثل السائر .

تعلن معركة حامية بين مؤلفيها .

وهكذا ترى هذه الحركة الكبيرة التي أحدثها هذا الكتاب في علم البيان العربي ، وترى الناس يتعصبون له ويتعصبون عليه تعصبهم للمذاهب السياسية والدينية .

قلنا : ألّف عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن أبي الحديد هبة الله المدائني الكاتب الشاعر كتيباً في الرد على نصر الله في المثل السائر سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » ، ولما وقف عليه أخوه موفق الدين أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد كتب الى أخيه المؤلف :

المثل السائر يا سيّدي صنفت فيه الفلك الدائرا
لكنّ هذا فلك دائر تصير فيه المثل السائرا[1]

ومن البيّن أن إطراء الكتاب لذي قرابته على أثر له أدبيّ كما فعل القاسم بن أبي الحديد لا يقام له وزن إلا إذا حققه النظر والاعتبار وثبت استحقاق الأثر لذلك الاطراء .

واتفق أن عز الدين بن أبي الحديد تزوج بعد تأليفه « الفلك الدائر على المثل السائر » امرأة أرملة ، وكان زوجها الأول جندياً وله ابن منها اسمه غازي ويلقب بفلك الدين فقال فيه الشيخ موفق الدين عبد القاهر بن الفوطي البغدادي الأديب الشاعر :

لقد أتانا مثل سائر ألفت فيه فلكاً دائرا
لكن هذا فلك دائر أصبحت فيه مثلاً سائرا[2]

وكان عامل الغيرة ماثلاً في تأليف « الفلك الدائر » لأنّ نصر الله بن الأثير استهزأ بالكتاب العراقيين ، وانتقد عليهم أقوالاً ، قال ابن أبي الحديد في مقدمته بعد الحمد لله والاشارة الى رضي الانسان عن نفسه وذم عجبه بها والصلاة على نبيه وآله وأصحابه .

« وبعد فقد وقفت على كتاب نصر الله[3] بن محمد الموصلي المعروف بابن الأثير الجزري

(١) الوفيات « ٢ : ٢٨٨ ـ ٩ » . وفوات الوفيات « ١ : ٥١٩ » طبعة مطبعة السعادة وفيه « أصبحت » مكان « تصير » .

(٢) تلخيص معجم الألقاب لابن الفوطي « ج ١ س ٢٩٢ » من نسخة مصطفى جواد الخطية الأولى .

(٣) في المطبوع « نصير الدين » وذلك خطأ وكان الطبع سنة ١٣٠٩ بعناية محمد الشيرازي وهو رديء جداً ، يصعب علينا التنبيه على مواضع رداءته لطوله وكثرته .

المسمى كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » فوجدت فيه المحمود والمقبول، والمردود والمرذول . أما المحمود منه فانشاؤه وصناعته ؛ فانه لابأس بذلك إلا في الأقل النادر ، وأما المردود فيه فنظره وجدله واحتجاجه واعتراضه ، فانه لم يأت فى ذلك فى الاكثر الأغلب ، بما يلتفت إليه ، ولا بما يعتمد عليه ، فحداني على تتبعه ومناقضته ؛ فى هذه المواضع المضطربة أمور منها إزراؤه على الفضلاء ، وغضه منهم ، وعيبه لهم وطعنه عليهم ؛ فان فى ذلك مايدعو إلى الغيرة عليهم والانتصار لهم ، ومنها إفراطه فى الإعجاب بنفسه والتبجح برأيه والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهذا عيب قبيح يُحبط عمل الانسان والاجتهاد ، ويوجب المقت من الله والعباد ، ومنها أنه قد أومأ مراراً فى كتابه الى عتاب دهره إذ لم يعطه على قدر استحقاقه ، فأردنا أن نعرّفه أن الرزق مقسوم ، لايجلبه الفضل ولا يرده النقص ؛ ومنها أن جماعة من أكابر الموصل[1] قد حسن ظنهم فى هذا الكتاب جداً ، وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة فى هذا الفن وأوصلوا منه نسخاً معدودة الى مدينة السلام وأشاعوه وتداوله كثير من أهليها ، فاعترضت عليه بهذا الكتاب وتقربت به الى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الامامية المستنصرية — عمر الله تعالى بعمارتها أندية الفضل ورباعه ، وأطال بطول بقاء مالكها يد العلم وباعه » .

ولم يكتف ابن أبي الحديد بالتعقيب على نصر الله بن الأثير فى « الفلك الدائر على المثل السائر » بل زاد عليه نقده إياه فى شرح نهج البلاغة وقد ابتدأ به غرة رجب من سنة « ٦٤٤ وأتمه سلخ صفر من سنة ٦٤٩[2] » ، ومن ذلك ما ذكره فى الكلام على « المقابلة » قال : « وقال ابن الأثير فى كتابه المسمى بالمثل السائر : إن هذا النوع من المقابلة غير مختص بلغة العرب فانه لما مات قباذ أحد ملوك الفرس قال وزيره : حركنا بسكونه . وفى أول كتاب الفصول لبقراط : العمر قصير والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان . قلت : وأي حاجة به الى هذا التكلف وهل هذه الدعوى من الامور التي يجوز أن يعتري الشك والشبهة فيها ليأتي

(١) كانت الموصل يومئذ عاصمة الدولة الأتابكية خارجة عن الحكم الفعلي للعباسيين .
(٢) شرح نهج البلاغة « مج ٤ ص ٥٧٤ » طبعة مصطفى البابي بمصر .

بحكاية من غير كلام العرب يحتج بها » ؟! .

وربما كان كتاب « الفلك الدائر على المثل السائر » أشهر هذه الكتب ولعلك ترى أن ابن الأثير قد اشتهر بكتابه هذا شهرة طغت على شهرته السياسية ، ولقد وزر للملوك وباشر الأمور خمسين سنة ، ومع ذلك فشهرته مؤلفاً بعلوم البلاغة أكثر من شهرته وزيراً أو كاتباً ، ولا عجب فقد صرف همه لهذا العلم ، وقرأ ما كتبه السابقون فيه . يقول في فاتحة المثل[1] السائر « وقد ألف الناس فيـــه — في علم البيان — كتباً ، وجلبوا ذهباً وحطباً ، وما من تأليف إلا قد تصفحت شينه وسمينه ، وعلمت غثه وسمينه ... » ثم أجمل رأيه فيما قرأ مما كتبه الناس وابتدع مسائل في علم البيان لم يسبقه اليها أحد ، حتى قال عن نفسه : « ... وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعـــة ، وانما هي متبعة ... » ومع كثرة ما كتب لا تراه يفخر بشيء فخره باطلاعه على علم البيان وإحرازه قصب السبق فيه .

وهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ « كتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور» قد ألفه ابن الأثير على ما يبدو لنا قبل كتاب المثل السائر ، وربما كان أول كتاب يؤلفه في علم البيان ، يقول في مقدمته وقد نقلنا أكثر ذلك[2] « ... لحت في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو ـ أي من موضوعات علم البيان ـ أشياء طريفة ، ووجدت في مطاويه منهذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة .. لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان ، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن ، وعمدته ، وخلاصة هذا العلم وزبدته ، فحيث أحرزت هذه الفضيلة ، وحصلت عندي هذه العقيلة ، أحببت أن أفرد لها كتاباً ، وأفصلها فيه أقساماً وأبواباً ، ليكون مقصوراً على شوارد هذا العلم وغرائبه ، ورموزه الخفية وعجائبه ، وليجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته ويعلم به مواقع الصواب في صناعته ... » .

واسلوب ابن الأثير هادئ في هذا الكتاب ، ينقل عمن تقدمه من علماء البيـان ويشير

(١) « ج ١ ص ٣ » . (٢) انظر ص ٣ من هذا الكتاب .

الى مواطن النقل في أكثر الأحيان ، وقد يجادل في الرأي جدالاً هادئاً ، وهذا ما لاتراه له في كتاب المثل السائر ؛ إذ قلما تراه يشير الى رأي وهو لايحاول تفنيده والنيل من صاحبه ، وهذا ما ألب عليه الذين تصدوا لنقد كتابه وتفنيد آرائه كمز الدين أبي الحديد المار ذكره .

وقد تفضل المجمع العلمي العراقي ، فصور هذا الكتاب على نسخة خطية بدار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ ، نسخت بنفقة الكتبخانة وأضيفت في ٢٤ مارت سنة ١٨٩٧ برقم : ٢٧٠ بلاغة و ٣٠٠٦٤ عمومية ، وكتب في صدرها « كتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، تأليف الشيخ الامام العالم العلامة ، لسان الأدب ، وترجمان العرب ، أبي الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري ، الشهير بابن الأثير رحمه الله تعالى وعفا عنه » وكان عدد أوراقها ١٦٥ ورقة . وتفضل المجمع العلمي العراقي فعهد إلينا بتحقيقها ، وكان خطها واضحاً لم نتعب في قراءته ، ولكنها كانت – مع وضوحها في الكتابة – كثيرة التصحيف ، وقد أجهدنا أنفسنا في الرجوع الى كتب البلاغة وكان أجداها نفعاً وأكثرها معونة لنا ، كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، للمؤلف نفسه ، وقد رأيناه في غير ما موطن يذكر هناك ما ذكره هنا ، وقد يفيض في أحد الكتابين على حين يختصر ويجمل في الكتاب الآخر ، حتى ليبدو للقارىء في كثير من الأحيان أن أحد الكتابين كان بمثابة مسودة للكتاب الآخر ، وكنا نوازن بين ما ورد هنا وورد في المثل السائر ، وقد رأينا كثيراً من الأخطاء جاءت في المثل السائر وكان من الممكن أن تصلح بالرجوع الى هذا المخطوط ، وقد نبهنا الى بعض ذلك في حواشي هذا الكتاب .

وقد أحببنا شخصية ابن الأثير الأدبية بعد إنفاقنا هذه المدة الطويلة في كتابه هذا ، ورأينا أن نوالي تحقيق آثاره ، فطلبنا الى المجمع العلمي العراقي أن يصور رسائل ابن الأثير المؤلفة في جزءين من معهد إحياء المخطوطات العربية في الادارة الثقافية في الجامعة العربية ، ومن مكتبة الجامعة الأميركية ببيروت ، ومن غيرها ورجونا أن يعهد الينا بنشر رسائله هذه ، وعسانا نوفق لهذا ، والله الموفق للخير .